كتب

يتناول الباحث الأميركي جوناثان غريبتز في كتابه الصادر حديثاً قصة نهب «مركز الأبحاث» التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت عام 1982 من قبل جيش الاحتلال، ونقل محتوياته إلى القدس، ومن ثم يخبرنا عن جهود المنظّمة والمثقّفين الفلسطينيّين لاسترجاعه

## قصة مركز أبحاث منظمة التحرير وسرقته ثم اختفاؤه

# أن تقرأ هرتزل في بيروت

ديمة شريف

أن يقرأ المرء كتاباً ثيمته الأساسية سرقة مكتبة «مركز الأبحاث» التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية أثناء اجتياح بيروت في العام 1982 من قبل الجيش الإسرائيلي، وصُور حرب الإبادة على غزة والعدوان على لبنان على يد الجيش نفسه تتدفّق على الشاشات أمامه، لهو أمر مربك. في كتابه «أن تقرأ هرتزل في بيروت: جهد منظمة التحرير لمعرفة العدو» الصادر حديثاً عن «منشورات جامعة برنستون»، والذي قضى عشر سنوات يعدّ له، يأخذنا الباحث والأستاذ الجامعي الأميركي اليهودي جوناثان مارك غريبتز في رحلة تمتدّ لحوالي نصف قرن، منذ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية مركزاً للأبحاث تابعاً لها، سُمّي ببساطة «مركز الأبحاث»، لإعادة تأسيسه في رام الله في العقد الماضي مروراً بأهمّ حدث طبع حياة هذا المركز: اجتياح بيروت في العام 1982 وسرقة مكتبته وأرشيفه ونقلها إلى القدس المحتلّة.

ولمن لا يعرف تاريخ «مركز الأبحاث» يشكّل الكتاب مرجعاً مهمّاً، يشرح تفاصيل تأسيسه والعمل فيه، وسرقته ومن ثم استعادة الأرشيف وفقدانه من جديد. قابل غريبتز مجموعة من المعنيّين، كان أبرزهم آخر مدير للمركز في سنواته البيروتية صبري جريس، الذي لا يزال يعيش في قرية فسوطة المحتلّة في الجليل الأعلى. كذلك التقى بالباحثين فيه عنان العامري وسميح شبيب (الذي ترأّس أيضاً المركز في رام الله قبل وفاته)، ومؤسس «مركز الدراسات الفلسطينية» وليد الخالدي، والراحل صادق جلال العظم وغيرهم. بالإضافة إلى الاطّلاع على جزء كبير من منشورات المركز بالعربية والإنكليزية، وأرشيف «المكتبة الوطنية الإسرائيلية»، و«الأرشيف الوطني الإسرائيلي»، ووثائق من أرشيف جيش الاحتلال الإسرائيلي أُزيلت عنها السرّية، والأرشيف الخاص لعدد من الباحثين والمؤرّخين.

يشرح الكتاب بالتفصيل كيف جرى تأسيس «مركز الأبحاث» وكلّ ما سبقه من محاولات قبل إطلاقه في العام 1965 على يد فايز الصايغ. ويخصص جزءاً كبيراً للحديث عن الكتب والمراجع التي كانت موجودة في المركز، والمنشورات التي أطلقها. مراجع بالإنكليزية والعبرية، بعضها قديم جدّاً، ومنها ما كان نادراً.

في جزئه الأول، يُعالج كتاب غريبتز نشأة «مركز الأبحاث» والسعي لدى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري كي يكون للمنظمة جهاز بحثي مركزه بيروت. وقد نوقش الموضوع بشكل مستفاض في أول اجتماع للجنة التنفيذية للمنظمة في العام 1964 من دون التوصل إلى اتفاق حول ماهية وتفاصيل عمل هذا الجهاز. في الوقت نفسه، كانت بيروت شهدت في العام 1963 ولادة «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» على يد قسطنطين زريق ووليد الخالدي وبرهان دجاني. مؤسسة سيبقى اللغط بينها وبين «مركز الأبحاث» في الأدبيات الإسرائيلية، حتى الاستخبارية منها، مستمراً لعقود. حاول الشقيري إقناع القائمين على المؤسسة بضمها إلى منظمة التحرير من دون جدوى.

يتابع كتاب غريبتز فيشرح كيف لجأ الشقيري إلى فايز الصايغ الذي أسس المركز وترأّسه عاماً، قبل أن يحل مكانه شقيقه الأصغر أنيس الذي بقي في منصبه حتى عام 1977 واستقال وفق غريبتز بسبب التوتر الذي شاب علاقته بياسر عرفات. وافق الشاعر محمود درويش على استلام دفة القيادة لفترة مؤقّتة، فأدار شؤون المركز عاماً كاملاً. تولّى بعده صبري جريس المهمة حتى الاجتياح الإسرائيلي لبيروت في العام 1982 وسرقة المركز من قبل الجيش الإسرائيلي. يظهر جليّاً من الكتاب إعجاب غريبتز بجريس الذي التقاه حيث لا يزال يعيش في فسوطة. يخصص له فصلاً كاملاً، يخبرنا فيه عن مسيرته ودراسته وممارسته المحاماة والكتابة بالعبرية والملاحقة الأمنية قبل الانتقال خارج فلسطين، وعمله في «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» قبل الانتقال إلى «مركز الأبحاث».

كذلك، يُخصّص فصلاً من فصول الجزء الأول ليُخبرنا عن تركيبة المركز وجوّ العمل الصارم تحت إدارة أنيس الصايغ، والتنوّع السياسي للعاملين فيه، فلم يكن الجميع من المنتسبين لحركة فتح أو منظّمة التحرير، ومن جنسيات متنوّعة. وأصبح المركز عشية الحرب اللبنانية ملتقى ثقافياً ذائع الصيت في بيروت، منشوراته تشكّل جزءاً أساسياً من الجو الفكري في لبنان والعالم العربي. وكان العاملون في المركز يعتبرون عملهم، وفق الباحثة عنان العامري، مهمّاً وتأثيره كبيراً. بالعودة إلى العلاقة بين «مركز الأبحاث» و«مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، يخبرنا غريبتز أنّ القائمين على المركزين اتفقوا على عدم وجود تعارض بين عملهما في مدينة واحدة وعلى بعد مئات الأمتار بعضهما من بعض. صبري جريس يشكل العنصر المشترك بينهما، إذ عمل في المؤسسة بعد وصوله إلى بيروت في العام 1970 بصفة باحث، قبل أن ينتقل إلى المركز بعد أربع سنوات ويترأسه لاحقاً. كان وليد الخالدي يرى المركز مؤسسةً ترويجيةً، «فكل حركة تحرر وطني تحتاج مركزاً للأبحاث»، فيما جريس يعتبر «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» أرستقراطية ونخبوية. ويستنتج غريبتز أنّ الجمهور المستهدف من قبل «مركز الأبحاث» كان العالم العربي، فيما جمهور المؤسسة «كان أبعد من ذلك» ويقصد الجمهور غير العربي.

في جزئه الثاني، يُخصّص الباحث الفصول السبعة لسبعة كُتب خصّصها المركز «لدراسة العدو لمساعدة القارئ العربي على التعرف عليه أكثر». ويحاول غريبتز من خلال ذلك أن يفهم سبب اختيار هذه الكتب بالتحديد لترجمتها ونشرها، وما هي وجهة نظر المركز والقائمين عليه للتعلّم والتعرّف على العدو. الكتُب هي: «الاستيطان الصهيوني في فلسطين» (1965) لفايز الصايغ، و«الفكرة الصهيونية: النصوص الأساسية» (1970) لأنيس الصايغ، و«التلمود والصهيونية» (1970) لأسعد رزوق، و«دليل القضية الفلسطينية» (1969) لإبراهيم العبد، و«المرأة اليهودية في فلسطين المحتلّة» (1968) لأديب قعوار، و«يهود الدول العربية» (1971) لعلي إبراهيم عبدو وخيرية قاسمية، و«دور الإرهاب الصهيوني في نشوء إسرائيل» (1969) لبسام بشوتي ونشره المركز بالإنكليزية.

يُشبه الجزء الثالث من الكتاب رواية بوليسية. يتحدّث بالتفاصيل عن كيف نهب المركز من قبل جنود الجيش الإسرائيلي ووُضع كلّ ما كان بداخله في صناديق ونُقل إلى القدس. ومن ثم يخبرنا عن جهود منظمة التحرير والمثقّفين الفلسطينيّين طيلة عام لتأليب الرأي العالمي وإجبار «إسرائيل» على إعادته. وهذا ما حصل في الرابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1983 في صفقة تبادل بين منظّمة التحرير و«إسرائيل» أطلقت بموجبها منظّمة التحرير ستّة جنود إسرائيليين أسرَتهم في العام السابق، مقابل إفراج «إسرائيل» عن أربعة آلاف أسير وأرشيف «مركز الأبحاث». نقل الأسرى والأرشيف إلى الجزائر عبر وساطة فرنسية.

أثناء إقامته في القدس عامين، قام غريبتز بتحقيق شبه استقصائي وبحث عن أي وثيقة تكشف النقاب عن أين حلّ الأرشيف في القدس، وكيف استُعمل لعام ونصف عام. هل جرت دراسته؟ هل نُسخ؟ ولاحق كلّ خيوط الأدلّة ليكتشف أنّ بعض الكتب من مكتبة المركز موجودة في بيوت جنود خدموا في الجيش في العام 1982، وشاركوا في اجتياح بيروت، إلى جانب حوالي سبعين كتاباً في «المكتبة الوطنية الإسرائيلية» وُجدت في عدد من الصناديق عند بدء أتمتة محتوياتها، ولا يعرف أي من الباحثين الحاليين في المكتبة كيف وصلت إليها، بسبب عدم وجود إيصال بالتبرُّع.

لكن أين الأرشيف اليوم؟ لا أحد يعرف. صبري جريس مقتنع أنّه في الجزائر وقد رأى بعينيه الصناديق قبل عقود، من دون أن يفتحها ويتأكّد من أنّ المحتويات لم تطاولها الرطوبة او تعرضت لأضرار، في مخزن تابع للجيش الجزائري، وفق ما أخبر غريبتز. أما سميح شبيب فقال للكاتب إنّها في الجزائر لأنّ مقرّ المركز الجديد صغير جدّاً ولا يمكن أن يسعها.

لا يوجد، وفق غريبتز، أي إشارة إلى مكتبة «مركز الأبحاث» في الأرشيف الجزائري تبعاً لباحثين غربيّين استخدموا هذا الأرشيف في العقود الماضية وجرّبوا مساعدة الكاتب على إيجاد دليل يوصله إليه، أي ببساطة لا إمكانية اليوم لمعرفة ما إذا جرى إنقاذ هذا الكنز المعرفي الذي يشكّل جزءاً مهمّاً من الذاكرة الوطنية الفلسطينية.

### أين الأرشيف اليوم؟

بعد أن تمّت عملية التبادل، وصل أرشيف «مركز الأبحاث» إلى الجزائر، لكن أين هو اليوم؟ لا أحد يعرف. إذ لا توجد، وفق صاحب كتاب «أن تقرأ هرتزل في بيروت»، أي إشارة إلى مكتبة «مركز الأبحاث» في الأرشيف الجزائري، تبعاً لباحثين غربيّين استخدموا هذا الأرشيف وجرّبوا مساعدة المُؤلّف على إيجاد دليل يوصله إلى هذا الكنز المعرفي الذي يُشكّل جزءاً مهمّاً من الذاكرة الوطنية الفلسطينية.

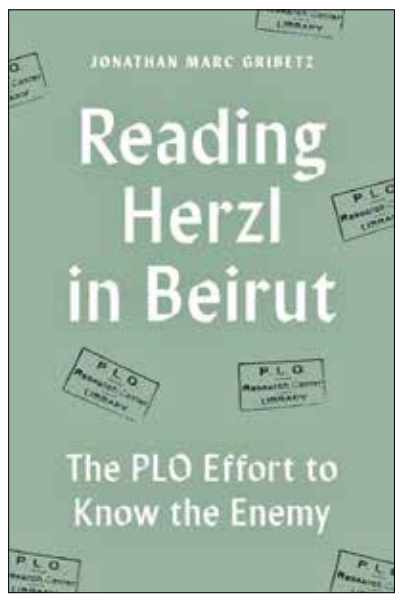


كانت غاية تأسيس المركز التعلّم والتعرّف على عقلية العدو

أُفرج عن أرشيف المركز و4 آلاف أسير مقابل ستّة جنود

بيروت تحت القصف إبان الاجتياح الإسرائيلي، 30 تموز/ يوليو 1982 (Getty)

## نظرة أولى

**أم كلثوم في تجربة المعتقلين الفلسطينيين: فضاء الحرية** عنوان كتاب للباحث الفلسطيني حسن عبد الله، صدر عن «دار الشامل». مستنداً إلى تجربة اعتقاله خلال الثمانينيات، بالإضافة إلى خمسين مقابلةً مع معتقلين سابقين امتدّت فترات اعتقالهم ما بين 1967 و1997، يضيء العمل تأثير أغاني المطربة المصرية الراحلة (1898 - 1975) على المعتقلين الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي، متناولاً العلاقة بينها وبين الفلسطينيين، بما في ذلك حفلاتها في فلسطين أعوام 1928 و1931 و1933، إضافةً إلى أغانيها الداعمة للقضية الفلسطينية.

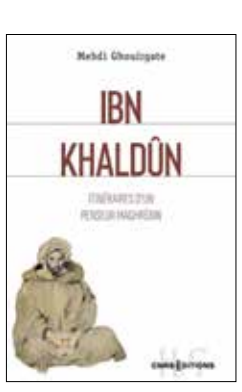

منذ إعادة اكتشافه في أوروبا قبل قرنين من الزمان، استمرّت شهرة ابن خلدون (1332 - 1406) في النموّ، إلى درجة أنّه يُعدّ اليوم المؤرّخ الوحيد من العالم العربي الإسلامي الذي يتمتّع بجمهور عالمي، حيث يُقارَن مؤلّف **كتاب العِبر** بالأسماء العظيمة في العصور القديمة والحديثة، من ثوسيديدس إلى مكيافيلي، ومن مونتسكيو إلى ماركس، هناك اكتسب سمعته رائداً للمفكّرين المعاصرين في المجتمع والدولة والاقتصاد. وهذا ما ينشغل به الباحث المغربي مهدي غويرجات في كتابه «ابن خلدون: رحلات مفكّر مغاربي»، الصادر بالفرنسية عن «منشورات CNRS».

صدر للشاعر والكاتب الفلسطيني المتوكل طه (1958) كتاب جديد بعنوان **دم النار... توقيعات على جدران غزّة**. في العمل الصادر عن «الهيئة المصرية العامّة للكتاب»، يوثّق المؤلّف، بلغة تصويرية، مَشاهد القتل والقصف والتدمير والجوع والخذلان في غزّة خلال العدوان الإسرائيلي الحالي، ساخراً من نفاق الغرب بخصوص شعاراته حول السلام والإنسانية، والتي دحضها تغافله عن عربدة الاحتلال الصهيوني وما يمارسه من إبادة جماعية. من إصدارات طه النثرية الأُخرى: «عباءة الورد: نصوص الانتفاضة والشهداء» و«طهارة الصمت: عن الكتابة وهموم الثقافة» (2003).

بتوقيع المترجمة العُمانية زوينة آل تويه، صدرت، عن «دار أثر»، الطبعة العربية من رواية **الهدية الأخيرة**، لصاحب «نوبل للأدب» (2021) التنزاني من أصل يمني عبد الرزاق قرنح (1948). يكتب الروائي المُقيم في المملكة المتحّدة في هذا العمل ملحمةَ السعي إلى الحرّية في المنفى. ومن غلاف الكتاب نقرأ: «من زنجبار إلى إنكلترا يهرب عباس حاملاً سرَّه الدفين الذي يبقى مطموراً في أغوار نفسه إلى أن يُباغتَه المرض في أرض الغربة ويُثقله الحزن. هل فات أوان الجهر بما في نفسه، أم ما زال هناك متّسع لرأب الصدع ونيل الهدية الأخيرة في الحياة؟».

عن «العائدون للنشر والتوزيع» صدر كتاب **إدوارد سعيد في ثقافات متصادمة: فرنسا، إسرائيل، إيران، والعالم العربي**، للباحث المغربي يحيى بن الوليد. يرى المؤلف أن خطاب سعيد ارتقى إلى مستوى «المهاجرة» في دلالة على ارتحال أعماله وأفكاره في ثقافات أخرى، إذ يدرسه في أربعة فصول: إدوارد سعيد بفرنسا: ارتحال منقوص واعتراض مدروس، وتيّار المؤرخين الجُدد وتأثير إدوارد سعيد: في السردية الإسرائيلية والسردية المضادّة، وإدوارد سعيد في إيران: توظيف وتطويع... وتقويل، والعرب وإدوارد سعيد: معارك الترجمة ومخارج التوظيف وأثقال الثقافة المغلوبة.

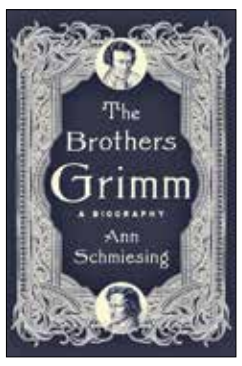

**الأخوان غريم... سيرة ذاتية** عنوان الكتاب الذي صدر عن «منشورات جامعة ييل» لأستاذة الأدب الألماني والإسكندنافي آن شميسينغ. تضيء المؤلفة حياة الأخوين الألمانيّين جاكوب غريم (1785 - 1863) وويلهلم غريم (1786-1859)، اللذين بذلا مجهوداً ضخماً من خلال قصصهما الخيالية وعملهما على إنشاء قاموس ألماني، إلى الحفاظ على الهوية الثقافية الألمانية في لحظة حرجة عاشت بلدهم فيها فظائع عديدة ارتكبت خلال الحروب النابليونية، بالإضافة إلى تعرّضهما لسلسلة من الخسائر الشخصية، ما حوّلهما من مجرّد موظفين في مكتبة إلى أصحاب مشروع ثقافي.

في كتابه **موضوع الأيديولوجيا السامي** الصادر بترجمة عربية عن «دار فواصل» أنجزها عدي جوني، يتناول المُنظِّر السلوفيني سلافوي جيجك (1949) مسألة فاعلية الإنسان في عالم ما بعد حداثوي، مستعيناً بالنكتة والسينما والأدب، بل عبارات الخطاب اليومي، ليستكشف الفانتازيا الأيديولوجية التي تشكّل المجتمع البشري. يربط جيجك مفاهيم أساسية بين الفلسفة وعلم التحليل النفسي بظواهر اجتماعية، مثل الاستبداد والعنصرية، وهو في كلّ ما سبق لا يُغالي في الصعوبة ولا يُفرّط في العمق الفكري، مُفكّكاً موضوع الأيديولوجيا السامي ومُعيداً إيّاه إلى أرض الواقع.

عن «مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات» في بيروت، صدر كتاب جماعي بعنوان **إضاءات سياسية حول معركة طوفان الأقصى والعدوان الإسرائيلي على قطاع غزّة**. يضمّ الكتاب 13 دراسةً تتناول مواقف عددٍ من البلدان، هي مصر وقطر وإيران والصين والهند وجنوب أفريقيا والبرازيل إضافةً إلى السلطة الفلسطينية، من «طوفان الأقصى» والعدوان الإسرائيلي على غزّة خلال الفترة من تشرين الأوّل/أكتوبر 2023 وحتى نهاية آب/أغسطس 2024. شارك في الكتاب كلٌّ من عاطف الجولاني، وحسام شاكر، ومحسن صالح، ومحمد مكرم بلعاوي، ووليد عبد الحي.